قرعاء تتباهى بجدائل أمها: حذارِ من السقوط في هوة الأصولية التاريخية

إن من حقنا اليوم أن نتيه زهواً وفخراً، وأن نصرخ مل، أشداقنا بأننا سليلو أمة وضعت اللبنات الأولى في صرح الحضارة البشرية. أجل نحن لنا كل هذا التاريخ، بكل رموزه وبكل معطياته. والتاريخ، كما هو معروف، هو ذلك الوعاء الكريم الذي يحمل الينا بأمانة معطيات سفر إنساننا الخالد، الإيجابية منها والسلبية، منذ الطفولة الإنسانية، يقدمها لنا بسخاء لنتدبر عـ ها.

فهل يا ترى من المعقول أن يغدوا التاريخ بكل ما يحمله من رموز وبكل ما يمنحه من معطيات إنسانية، ومن دروس وعـ ، سبباً في عدم تمكننا من مسايرة ركب الحضارة البشرية؟، هل حقاً ان تاريخنا العريق الأصيل هذا هو العقبة الـ أعاقت مواصلة تقدمنا، ومن ثم لنرمي عليه اللوم كله والسبب كله في إنتكاستنا وعدم تمكننا من تسلم زمام المبادرة من أيدي أسلافنا لمواصلة الخطى.. تلك الخطى الجريئة لأجدادنا الذين كان لهـ م كل الشرف في رسم بل وشق الطريق الأول نحو التحضر والتمدن؟.

بنيامين حداد/ بغداد

لكوني قعيد الدار، لم أبرحه منذ أشهر بسبب ما أعانيه من آلام مبرحة في الفقرات، فقد تكرم وعادني جمع من الإخوة الأصدقاء مشكورين، وكانت جلسة لطيفة ممتعة، طاب خلالها الحديث وتشعب في كل منحى، متناولاً أموراً شتى، وبخاصة تلك التي تفرزها اليوم الساحة الثقافية والسياسية، وما تثيرها من بؤر ساخنة وكان لابد للظرف الصحي الذي أعيشه من أن يُعرّج بالحديث نحو الأمور الطبية، وما قطعه العلم من أشواط متقدمة في هذا المضمار، وما ابتكره العلماء من أساليب تقنية عالية في معالجة شتى الأمراض، وبخاصة تلك التي يتم التعامل معها بالتداخل الجراحي، وكيف ان التقنية المتطورة في مجال الطب الجراحي اليوم قد ارتقت إلى درجة تخالها الاعجاز بعينه، بل ان بعضاً من تلك الإنجازات الطبية كانت وإلى ما قبل عقد أو عقدين من السنين في ذهن العلماء أنفسهم ضرباً من الأحلام، وقد غدت اليوم واقعاً ملموساً

وفي هذا المجال تحدث أحد الحاضرين عن تجربة مدهشة مذهلة، تحدث عن عملية جراحية شاهدها على شاشة التلفزيون قبل أيام أجريت لمريض أصاب النخر العظم في بعض فقرات ظهره، فقام الجراح بقشط الجزء المنخور، وزرع مكانه قطعاً صغيرة من المرجان الأبيض النقي، فكان أن تعامل الدم بعد فترة قصيرة مع هذه المادة الدخيلة إيجابياً، فأذابها وأجرى عليها تعديلات كيمائية تتناسب وخواص مادة العظم في جسم المريض، ثم راح يبني الجزء المنخور من الفقرة ويرممه بما اذابه من مادة المرجان تلك

إنبهر الحاضرون وأبدوا دهشتهم الكبيرة إزاء هذا الإنجاز العلمي العظيم

وهنا انبرى جليس آخر وقال وماذا يعني ذلك ؟ وما قيمة هذا الإنجاز إزاء ما نمتلكه نحن من ماض وأمجاد تاريخية ؟ نحن لنا تاريخ، وهو ما يفتقرون اليه هم قال ذلك وأصداء التهكم والإستياء تزوبع في أرجاء ضحكته الساخرة التي أفصحت بوضوح عن كل ما يخزنه في دخيلته من نفور من رموز التاريخ ورفض لمعطياته، باعتبارها رموزاً تراجعية سلفية، وان علينا إن أردنا عصرنة وجودنا، نبذها والتنكر لها والكفر بها

تعم نحن لنا تاريخ طويل ومشرف، تاريخ عميق وبعراقته، مشهودٌ له بأصالته، ولسنا وحدنا من يقول هذا، فسفر التاريخ البشري يقر ذلك قبلنا ويكفينا فخراً ان الآخرون قد سبقونا فضفروا أكاليل المجد فوق هامات أبطال جبابرة من سلفنا الصالح، كرموز تاريخية كبيرة لها شرف الريادة في تطوير الإنسان وحضرنته

إن من حقنا اليوم أن نتيه زهواً وفخراً، وأن نصرخ ملء أشداقنا بأننا سليلو أمة وضعت اللبنات الأولى في صرح الحضارة البشرية أجل نحن لنا كل هذا التاريخ، بكل رموزه وبكل معطياته والتاريخ، كما هو معروف، هو ذلك الوعاء الكريم الذي يحمل الينا بأمانة معطيات سفر إنساننا الخالد، الإيجابية منها والسلبية، منذ الطفولة الإنسانية، يقدمها لنا بسخاء لنتدبر عبرها

فهل يا ترى من المعقول أن يغدوا التاريخ بكل ما يحمله من رموز وبكل ما يمنحه من معطيات إنسانية، ومن دروس وعبر، سبباً في عدم تمكننا من مسايرة ركب الحضارة البشرية؟، هل حقاً ان تاريخنا العريق الأصيل هذا هو العقبة التي أعاقت مواصلة تقدمنا، ومن ثم لنرمي عليه اللوم كله والسبب كله في إنتكاستنا وعدم تمكننا من تسلم زمام المبادرة من أيدي أسلافنا لمواصلة الخطى تلك الخطى الجريئة لأجدادنا الذين كان لهم كل الشرف في رسم بل وشق الطريق الأول نحو التحضر والتمدن؟

نحن نقرأ التاريخ فتسكرنا امجاده فننتشي.. يملؤنا الزهو بها فننتفخ مثل فقاعات هوائية عملاقة.. أخف الرياح ترفعنا، وهناك في علياننا نعيش تساميا الموهوم.. نعرو القهقري ونحلم برموزنا التاريخية وبارثنا الحضاري وبما أنجزه السلف من أمجاد، فتصيبنا حمى التباهي والافتخار بما لا فضل لنا فيه، وبما لا يد لنا في صنعه، لينطبق علينا مثل القرعاء الـ تباهت بغزارة الشعر في ضفائر أمها..

نظرة واقعية موضوعية، فغدت معطيات التاريخ لهم جرعات بلسم منشط، يستفزهم أبداً ويدفعهم للحركة والإبداع، للخلق والبناء وللتغيير والتطور هم يتناولون ما يقدمه لهم طبق التاريخ الشهي، فيمضغونه ويهضمونه جيداً ومن ثم يتمثلونه وهم في قمة يقظتهم ونشاطهم

نحن نقرأ التاريخ، وهم يستقرئون التاريخ نحن نقرأ التاريخ ربما أكثر من غيرنا، لكننا لا نتدبره، أما هم فيشرّحون التاريخ كما يشرّح الجسم فوق مصاطب التشريح، ويدخلون أجزاءه الدوارق المختبرية إنهم يتناولون مفردات التاريخ ويخضونها خضّاً عنيفاً كما يُخض اللبن داخل قربة جود، ويستخلصون زبدته زبدة التاريخ

نحن ندّعي إننا الورثة الشرعيون للتاريخ كله، وإن أمجاده كلها حكرٌ لنا وهم ينفتحون على التاريخ بكل معطياته، بإعتبارها حلقات متواصلة من الفكر الإنساني بشكل مطلق، حلقات متداخلة متفاعلة مع بعضها مؤثرة ومتأثرة مفردات التاريخ لديهم

لن نكون مثاليين، ولن ننطلق من النظرة التطويبية لرموز التاريخ في اجابتنا عن هذا السؤال، وإنما سنحاول التحرر من أسار العواطف والأحاسيس، ونتوخى الأمانة والصدق مع أنفسنا، عندئذ سنعترف ونجيب بلا ونعم معاً

قد يبدو هذا الجواب غريباً إلى حد ما، إلا أن ما يفرضه ويبرره هو إحتمالية أن يغدو التاريخ سيفاً ذا حدين، أو بالأحرى أن نجعل منه نحن سيفاً ذا حدين

لا نخالف الحقيقة وهي حقيقة مرة إن قلنا أن رموز التاريخ وأمجاده قد غدت بالنسبة لنا جرعة أفيون مخدرة منوّمة، أورثتنا الجمود والسكون، لأننا عشنا ولا نزال نعيش معطيات التاريخ بعواطفنا وبمشاعرنا وحواسنا، ننطلق في فهمها من نظرة مثالية طوباوية ونجعل من مفردات التاريخ رموزاً سرية مقدسة، ننشئ لها معابد ونضعها في محاريبها ونروح نتعبدها، نمجدها ونرفع آيات الشكر والحمد

أما هم أولئك الذين ندّعي كونهم بلا تاريخ أولئك الذين سبقونا أشواطاً وتركونا نلهث وراءهم للحاق بهم سدىً، قد إنطلقوا في فهمهم للتاريخ من خامات أساسية أصيلة، قابلة وخاضعة مثل أي شيء في هذا الكون قابل وخاضع للتحوير والتطوير، للتغيير والتهذيب في طبيعته وشكله، في حجمه وأبعاده ومقاساته وألوانه بما يلائم العصر وإنسان العصر

هم يدركون إن لكل زمان ولكل مكان قواعد وضوابط، معايير ومقاييس، إعتبارات ومتطلبات خاصة في حين نرسم نحن هالات قدسية حول رموزنا التاريخية، فنكسبها عصمة تجعلها فوق كل القواعد والضوابط، فوق كل متطلبات العصر واحتياجاته، وعصية على كل الأحكام والمقتضيات، منيعة حتى على مجرد التفكير في التحاور والمناقشة بشأنها

نحن نقرأ التاريخ فتسكرنا امجاده فننتشي يملؤنا الزهو بها فننتفخ مثل فقاعات هوائية عملاقة أخف الرياح ترفعنا، وهناك في علياننا نعيش تساميا الموهوم نعود القهقري ونحلم برموزنا التاريخية وبارثنا الحضاري وبما أنجزه السلف من أمجاد، فتصيبنا حمى التباهي والإفتخار بما لا فضل لنا فيه، وبما لا يد لنا في صنعه، لينطبق علينا مثل القرعاء التي تباهت بغزارة الشعر في ضفائر أمها

> نحن نقرأ التاريخ فتسكرنا امجاده فننتشي.. يملؤنا الزهو بها فننتفخ مثل فقاعات هوائية عملاقة.. أخف الرياح ترفعنا، وهناك في علياننا نعيش تساميا الموهوم.. نعرو القهقري ونحلم برموزنا التاريخية وبارثنا الحضاري وبما أنجزه السلف من أمجاد، فتصيبنا حمى التباهي والافتخار بما لا فضل لنا فيه، وبما لا يد لنا في صنعه، لينطبق علينا مثل القرعاء الـ تباهت بغزارة الشعر في ضفائر أمها..

لقد أوفد آشور بانيبال ٦٨٨ ٦٢٧ ق م فيلسوف الملوك الآشوريين، علماء وباحثين ونسّاخين إلى أقاصي العالم المعروف في زمانه، شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، وجمعوا كل معطيات الفكر الانساني، وترجموه الى لغتهم الأم وأدخلوه بودقة المفاهيم الثقافية الآشورية، ومن ثم نقش على عشرات الآلاف من الرقم الطينية، وتم خزنه ليشكل اول وأعظم مكتبة في التاريخ إطلاقاً فماذا فعلنا نحن؟

لقد دبجنا العشرات إن لم نقل المئات من المقالات في وصف هذه المكتبة، والقينا مئات الخطب الرنانة في عظمتها، فألهبنا المشاعر والأحاسيس، وجعلنا من أمرها مأساة، وصعّدنا بتشديد العين من الحس الدرامي التراجيدي فيها وربما عمدنا أحياناً الى ذرف دمعة او دمعتين، ثم كفكفنا دموعنا، فإرتاحت نفوسنا وهدأت، وهكذا ينتهي كل شيء

هل فكرنا نحن بإعتبارنا سليلي أعاظم قادة الفكر في العالم القديم، وبادرنا، كمؤسسات وتنظيمات وتجمعات ثقافية، الى إنشاء مركز ثقافي يضم بيت كتب يجمع معطيات تراثنا الفكري؟ ، دار كتب عامة شاملة موسعة، يركن اليها الباحثون والدارسون والمثقفون عامة ليجد فيها الباحث ضالته، ولينهل الدارس منها العلم والمعرفة، وليستفيد المثقف من تجارب الأولين، وفي الوقت عينه نصون ونحافظ فيها ما أورثه لنا الأجداد، وأودعوه أمانة في أعناقنا

ان تحقيق مثل هذه المبادرة ليس من الأمور الصعبة او المستحيلة وخاصة اذا تضافرت كل الجهود في إرادة واحدة ترى هل بادرنا؟، للأسف كلا ويا ليتنا توقفنا عند هذا الحد ولم نتجاوزه فنقوم بإتلاف وحرق الآلاف من الأسفار والمصنفات الفكرية النفيسة والقيمة لأسباب تافهة معروفة ولا مجال لسردها هنا

نعم، لقد أقدمت بعض مؤسساتنا الدينية على صيانة وحفظ الكثير من المصنفات التراثية مشكورة، ولقد أسدت بذلك خدمة عظيمة لأبناء الأمة، إلا أن ما يجدر ذكره هنا هو ان الغالبية العظمى من ذلك التراث الفكري يعالج الأمور الدينية والمفاهيم الروحية في حين ان الإنسان روح وجسد، وليس كائناً روحانياً فقط

لنترك فيلسوف ملوك آشور، ونتحول الى جده سنحاريب ٧٠٥ ٦٨١ ق م ، فلاح الإمبراطورية الآشورية الأول، الذي جعل من السهول الواقعة شمالي عاصمته العظيمة نينوى قطعة من الفردوس الأرضي يخبرنا هذا الملك في إحدى كتاباته النقشية، كيف قام بجلب الماء من سفوح جبال ميسري ، وقد حور الاسم اليوم الى صيغة ميزوري ، وبالذات من منطقة خنس وبافيان وحتى مشارف مدينة نينوى عبر قناة ذات تصميم هندسي عجيب، مروراً بعبّارة هائلة بربو طولها على الثلاثمائة متر، اقيمت هذه العبارة عبر واد بالقرب من قرية جروانة، وهي عبارة عن جسر يجري فوقه نهير معلق يتقاطع مع نهير يجري تحته في قعر الوادي

لقد كانت هذه القناة تشكل ساعدة واحدة في المشروع الإرواني هذا، سحبها سنحاريب من الشمال الشرقي لعاصمته اما الساعدة الثانية فقد سحب مياهها من اواسط جبال تاس او دوس ، ويذهب الخبراء الآثاريون اليوم الى ان هذه التسمية قد حورت لاحقاً الى دوسكي بإضافة اللاحقة الكردية كي التي تفيد معنى التأنيث او التصغير وآثار هذه القناة لا تزال شاخصة للعيان عند الفتحة التي تفصل جبل القوش عن جبل ده كان شمال قرية بيهندوايا غرب بلدة القوش، حيث منحوتة شيرو ملكنا المعروفة والتي يذهب الآثاريون الى ان النحت البارز في صدر المنحوتة يمثل الملك سنحاريب للإطلاع على تفاصيل هذا المشروع الإرواني الذي غذته قناتان، الاولى الى الشمال الشرقي من العاصمة نينوى، والاخرى الى الشمال الغربي منها، أنظر بحثنا المعنون القناة الغربية لمشروع سنحاريب الإرواني، المنشور في مجلة، بين النهرين، البغدادية ٩٧ ١٠٠، عدد خاص ، ١٩٩٧ ٧٧ ٨٠

تلك كانت واحدة من أعاظم الإنجازات الآشورية في هندسية الري قبل ما يقرب من ٢٧ قرناً من الزمن فماذا فعلنا نحن، وحتى يوم الناس هذا؟!

الجواب لا شيء، إذ لا زال من يستوطن المنطقة تلك، ينتظر نعمة السماء لتجود عليه بقطرات مطر تنبت الزرع وتملأ الضرع وتسد رمقه، والا فيدونها مات جوعاً

واليوم وفي الكثير من حقولنا، رغم مد التكنولوجيا الغربية، لا زلنا نحرث، بل بالأحرى نخدش سطح الأرض بمحراث خشبي بدائي تجره الدواب كالحمير والثيران والبغال في حين ترينا النقوش الآثارية كيف طور اسلافنا العراقي القديم آلة زراعية هي حارثة بذرة في آن واحد

وفي الأمس القريب رأينا كيف خرجت علينا التكنولوجيا الحديثة بآلة شبيهة، مقتبسة الفكرة من محراثنا البذار، معتمدة المبدأ الوظيفي فيه والذي تفتق عنه ذهن ابن العراق القديم فماذا فعلنا نحن؟

لقد عمدنا الى تصوير محراثنا ذاك، ونشرناه في العشرات بل المئات من الكتب والنشريات، واكتفينا بالتباهي والتفاخر به بين الأمم في الوقت الذي لا زالت قرى لنا متناثرة هنا وهناك بالقرب من الأسوار الجبارة لعواصمنا القديمة، تلك الأسوار التي كانت تحيط بقصور وحصون ومعالم

وبنوا في زواياه الاكثر عتمة، والتقطوا من هنا ومن هناك مارأوا فيه ضالتهم، وما لمسوا فيه امكانية توظيف جوانبه السلبية، بغية تمييز ذواتهم، وإشباع رغباتهم وميولهم الشخصية المريضة، ومايشدهم الى عروشهم وكراسيهم سبكوا سيوفاً قاطعة من كل ماهو مظلم وسلبي في التاريخ، ومزقوا شعبهم وجعلوا منه شرائم متنافرة سيوف كثيرة شتتوا بها الأمة، ومن اكثر تلك السيوف شراً سيف التسميات القومية التي تبنوها نفاقاً بعد تفريغها من مفاهيمها ومداليلها التاريخية الحضارية، تسميات لا يؤمنون بها اصلاً، تسميات هي في حقيقتها افرازات فترات من التاريخ مرت بإنساننا ولدتها عوامل عديدة مختلفة جغرافية مكانية او ميثولوجية عقائدية او مهنية حرفية وغيرها

نقول والأسى والأسف يملؤنا اننا اليوم، معظمنا وبخاصة المثقفون فينا، اثنان إما أصولي سلفي تراجعي، يقدس رموز التاريخ ويتعبدها او جاحد نابذ وناكر لكل رموز ومعطياته ملاحم رومانسية، تلهب احاسيسه ومشاعره يغلي يفور، وبالسرعة التي تتصاعد لديه حرارة حب الماضي وامجاده، بل وبأسرع منها يخبو ويبرد حد الانجماد والجمود

اما القبيل الثاني النابذ للتاريخ والكافر بكل رموزه ومعطياته وامجاده تلقاه يعزو ظلماً واجحافاً كل اسباب انتكاستنا وتأخرنا وتخلفنا عن ركب الحضارة الى التاريخ، ويعتبر موقفه هذا انفتاحاً ومعاصرة ومسايرة لروح العصر، وخروجاً مما يدعوه قوقعة التاريخ، جاهلاً او متجاهلاً، مخدوعاً مدفوعاً او مغرضاً قاصداً، بأن الشجرة لاتنمو وتخضر وتورق وتزهر ثم تثمر، ان لم يكن هناك جذور لها ضاربة في اعماق الارض، تمدها التربة بنسغ الحياة والبقاء، غافلاً او متغافلاً بان الامم التي تقدمت علينا اليوم قد ارتقت بحضاراتها حد الاعجاز احياناً عن طريق التفاعل الايجابي مع معطيات التاريخ،ليس تاريخهم وحسب بل تاريخ الإنسان اينما وجد على سطح كوكبنا الأرض المباركة، وطن الإنسان الأعظم وبذلك تحاشوا السقوط في هوة الخصوصية او الاصولية التاريخية القاتلة

اذن ما ينبغي علينا هو ان نتعامل مع معطيات التاريخ بموضوعية في ضوء النظرية النقدية للتاريخ وعندئذ سيتضح لنا ان بالإمكان ان تغدو رموز التاريخ وامجاده رايات وبنود وشعارات تعلو الهامات وتتقدم الركب ولكن لكي تترتفع تلك الرايات والبنود والشعارات التاريخية، ينبغي ان يكون هناك ركب سائر يتقدم، فالراية لاترتفع ولا تتقدم لوحدها، حاملوها هم الذين يتقدمون بها، الرايات والشعارات التاريخية رموز مجردة، وتظل مجردة ان لم تلق من يرفعها ويجسدها على ارض الواقع بالعمل

> نقول والأسى والأسف يملؤنا، اننا اليوم، معظمنا وبخاصة المثقفون فينا، اثنان: إما أصولي سلفي تراجعي، يقدس رموز التاريخ ويتعبدها. أو جاحد نابذ وناكر لكل رموز ومعطيات التاريخ. وتلك علة عللنا، ومصدر مأساتنا الكبرى. وسبب انتكاستنا القاتلة الا ازمنت فينا، فألفناها والفتنا الى حد صرنا نستطيبها ولانقوى العيش من دونها، غدت كما لو كانت من الثوابت المسلمات في حياتنا، استسلمنا لقدريتها كأمر واقع طبيعي.

عمرانية عدّ البعض منها من عجائب الدنيا السبعة، قرى لنا قائمة اليوم في القرن الواحد والعشرين، قوامها بيوت طينية بدائية، فيها السقيفة التي تأوي الماشية لاتختلف عن تلك التي يسكنها الانسان

هذا وغيره الكثير من الارث الحضاري الكبير، اين نحن منه ؟ الحكماء الدهماء الدواهي منا نبشوا التاريخ، ومعطيات التاريخ وتلك علة عللنا، ومصدر مأساتنا الكبرى، وسبب انتكاستنا القاتلة التي ازمنت فينا، فألفناها والفتنا الى حد صرنا نستطيبها ولانقوى العيش من دونها، غدت كما لو كانت من الثوابت المسلمات في حياتنا، استسلمنا لقدريتها كأمر واقع طبيعي

نعم نحن اليوم اثنان، قبيل فينا يعيش الماضي، تمثل امجاده